

الفكر المستورد
وأثره في تشويه الوعي بالهوية الحضارية

زياد عبد الكريم النجم *

لكل حضارة هويتها الذاتية وشخصيتها المستقلة، والتي تتميز بها عن غيرها من الحضارات الأخرى، وذلك لأن الحضارة تبسط سطوتها على كل ما يقع في نطاقها من منتجات فكرية أو مادية مما أنتجه أبناؤها حتى أن سطوتها تطال ما وفد إليها من الحضارات الأخرى. لأنها تحيل هذا المنتج الوافد إلى ذاتيتها وتعيد إنتاجه من جديد، فتصبغه بصبغتها فلا يغدو بالتالي غريباً عنها، لأنها أعادت خلقه من جديد وفق منظورها الخاص.

---

* باحث سوري

- العمل الفني: الفنان أحمد الياس



وعلى الرغم مما يبدو على الحضارات من تشابه في إطارها العام أي في مسارها الخارجي عبر التاريخ، إلا أنه لكل حضارة روحها الخاصة وطبيعتها المختلفة ورؤاها المشتركة التي تجمع بين أفرادها وتوحد من خلالها نظرتهم إلى الوجود والعالم والإنسان والمجتمع. فالتشابه بين الحضارات إذاً هو تشابه خارجي يقع في سياقها العام وصيرورتها التاريخية المتمثلة في الأطوار المتشابهة التي تتعاقب عليها (مولداً ونمواً وارتقاءً ثم انهياراً وانحلالاً) أما الاختلاف فيتجسد في صميم الحضارة وفي مضمونها الداخلي أي في روح الحضارة.

«ويرجع هذا إلى كون الحضارات تعبيراً عن الروح وهي تختلف من حضارة إلى أخرى سواء في جوهرها أم في أسلوبها، فإذا ما اشتركت الأسباب الخارجية المؤثرة في حضارتين، تغلبت هذه العناصر على نحو مغاير تماماً للنحو الذي تقبل عليه الحضارة الأخرى، والسبب الرئيسي في ذلك هو أن كل حضارة لا تستطيع أن تهضم هذه العناصر إلا بإحالتها إلى طبيعتها ولهذا يصبح ما هو حقيقي بالنسبة لحضارة ما غير حقيقي بالنسبة لحضارة أخرى»[1].

ولما كانت هوية أي حضارة تتمثل في روحها ومضمونها الداخلي الذي تنفرد به، ويميزها عن غيرها، فإن بحثنا سيتمحور حول مضمون الحضارة لا شكلها. ويجب أن نؤكد على أن أهمية الهوية الحضارية تكمن في كونها تشكل السور الذي يحمي أفرادها من خطر الاختراق الحضاري والغزو الثقافي، كما أنها تقيهم من آفة الذوبان في الذوات الحضارية الأخرى. ولعل من أعظم ما يواجه الهوية الحضارية من خطر يتمثل في عملية استيراد الأفكار بعد اقتلاعها من جذورها الحضارية وسياقها التاريخي وظروفها المجتمعية ومن ثم غرسها في أرض حضارة أخرى لا تتناسب مع طبيعتها وظروفها الاجتماعية والنفسية ولا مع منظومتها الأخلاقية أو بنيتها المعرفية.

وقضية إثبات الهوية والحفاظ عليها هي قضية تعرض لها الفكر العربي المعاصر منذ فجر عصر النهضة العربية ومازالت هذه القضية مطروحة حتى اليوم نظراً لخلل العلاقة بين الأنا والآخر ونتيجة للتقليد، تقليد القدماء أم تقليد المحدثين وهي تندرج تحت إشكالية الأصالة والمعاصرة.

وحتى لا نستمر في الخوض في

العموميات فإننا سنركز على ثلاثة أنواع من الفكر المستورد وهي التالي:

أولاً: المفاهيم المستوردة:

المفهوم: هو تصور ذهني مجرد يستطيع الإنسان من خلاله أن ينظم إدراكاته ومعارفه للأشياء والموجودات، سواء كانت واقعية أم وهمية، طبيعية أم تاريخية، اجتماعية أم نفسية. والمفاهيم عموماً تتميز بمجموعة من الصفات وهي:

١- أنها من إنتاج العقل البشري، حيث إن المفاهيم تتكون وتتشكل عبر عمليتين عقليتين هما التجريد والتعميم.

٢- أنها تاريخية، بمعنى أنها تنشأ تاريخياً وتتطور بتطور الوعي الإنساني للماصدقات التي تنطبق عليها.

٣- يتم إنتاجها من قبل جماعات بشرية معينة مهيأة معرفياً وحضارياً لإنتاجها.

والذي نود أن نؤكد عليه هو أن المفاهيم هي منتوجات بشرية وبوصفها كذلك فهي قابلة للاستيراد والتصدير لغايات مختلفة، ويمكن أن تستخدم وتوظف في وظائف شتى شأنها في ذلك شأن السلع المادية على اختلاف أنواعها. ولكن الفرق بين المفاهيم والأفكار المستوردة، وبين المنتجات والسلع المادية، يكمن في أن السلع

المادية بكل أشكالها وأصنافها ليست هي التي تعطي للحضارة هويتها، وليست هي التي تصوغ طراز حياة أبنائها (معرفياً أو أخلاقياً أو سياسياً أو اجتماعياً..الخ)، كما أنها ليست هي التي تعبر عن المضمون الداخلي للحضارة المصدرة أو الحضارة المستوردة على حد سواء، بل إنها هي مما تتبادله الشعوب في كثير من الأحيان دون أن يؤثر ذلك على هويتها الحضارية. ويجب أن نؤكد أيضاً على نقطة أخرى فيما يخص الهوية الحضارية وهي أنه ليست المذاهب الفلسفية الكبرى والفنون العظيمة والآداب الرفيعة هي التي تعطي الحضارات هويتها الخاصة فحسب، بل إن أبسط فكرة أو عادة اجتماعية أو سلم قيمي أو نمط وأسلوب معيشي، مهما صغر شأنه، فإن له أهميته ودوره في بلورة الهوية الحضارية وبناءً على ذلك فإن لكل المجتمعات الإنسانية حضارتها وهويتها حتى أن موريس كروزيه ذهب إلى القول: «إنه حتى الأقوام المتوحشة لها حضارتها الخاصة بها»[٢].

«فالحضارة هي نمط عيش مجموعة بشرية معينة، في بيئة معينة يتمثل في النظام الذي تعتمده المجموعة وفى سلم القيم التي تحدده لنفسها. وفق هذا التعريف، نستطيع القول إن لكل مجتمع حضارته الذاتية المتميزة»[٣].

ولكي ننتقل من المجرد إلى المشخص، نسوق بعض الأمثلة على بعض المفاهيم والمصطلحات المتداولة على الساحة الفكرية والمنابر الثقافية العربية فمثلاً كثيراً ما نستخدم مفاهيم ومصطلحات كالعولمة ونهاية التاريخ وحوار الحضارات وصدام الحضارات والحداثة وما بعد الحداثة.. الخ.

والمتصفح لهذه المصطلحات والمفاهيم، يجدها لا تعدو كونها موضة مفهومية يصدرها إلينا الغرب، ونتلقفها نحن ونتداولها في منتدياتنا الفكرية ومحاضراتنا الأكاديمية دون تدقيق أو تمحيص، حتى أنها لا تعبر عن طموحاتنا أو رغباتنا بل إنها تعبر عن طموحات ورغبات الآخر الحضاري (الحضارة الغربية) ولهذا السبب فإن هذه المفاهيم والمصطلحات تحتاج إلى فهم أعمق وتدقيق أكبر ومن ثم هضمها وإعادة صياغتها وإنتاجها من جديد، لأن هذه المفاهيم والمصطلحات كما هي عليه لا تمثل هويتنا الحضارية ومن هنا تأتي الحاجة إلى إعادة تشكيل- هذه المفاهيم بعد فهمها وتمثلها وهضمها- وفق رؤيتنا

الحضارية. ولكي نستطيع أن نحدد موقفنا من المفاهيم والمصطلحات المستوردة لا بد لنا من أن نتعلم كيف نستقرئ الخطاب المعرفي. وهذا أمر لا يتحقق لنا إلا من خلال استيعابنا للمفاهيم التي تشكل هذا الخطاب وذلك لأن فهمنا الخاطئ لقراءة الخطاب المعرفي سببه الرئيسي عدم فهمنا للمفاهيم التي يتكون منها. وهذا ينقلنا إلى قصية الخطاب الحضاري إذ إن القراءة المقطوعة من سياقها الزماني والمكاني وظروفها الموضوعية والتاريخية يجعلنا نقع في دائرة التأويلات والاحتمالات. فالخطاب هو مجموعة من النصوص التي تحوي على مجموعة من المفاهيم والمصطلحات التي تشكل وجهة نظر ما تعرض لنا الحياة بكل تلويناتها والتي تحوي القدرة على تجاوز ذاتها عبر المعنى كما يقول الفيلسوف الألماني هيغل. ولكن ما يحدث هو أننا عندما نقرأ الخطاب المعرفي تكون مفاهيمه مبهمة في أذهاننا وبالتالي نلجأ إلى تأويل مفاهيمه والنتيجة هي أن الخطاب المعرفي سيتشكل لدينا بطريقة عشوائية مضطربة وهذا ما قد يوقع حضارتنا في فخ التراجع الحضاري وآفة التبعية الحضارية.

ثانياً: المناهج المستوردة:

المنهج: في أبسط تعريف له هو جملة من المبادئ والقواعد والإرشادات التي تساعد الباحث على الوصول إلى هدفه العلمي المنشود. ولكل علم من العلوم منهجه الخاص به ويمكن أيضاً أن يستخدم أكثر من منهج حسب الحاجة لذلك. ولكن مما يجب أن نركز عليه هو الآتي:

١- إن موضوع العلم هو الذي يفرض المنهج الذي يناسبه للبحث فيه وليس العكس.

٢- كما يجب أن نبين أن استيراد المناهج. في العلوم الطبيعية (كعلم الأحياء والفيزياء والكيماء..الخ) وأيضاً العلوم الرياضية والمنطق. ليس له أي أثر سلبي على هوية الحضارة المستوردة إذ إنه مثلاً لا توجد رياضيات عربية أو رياضيات أوربية بل إن الرياضيات هي الرياضيات واستيراد أو تصدير مناهجها لا يؤثر على الهوية الحضارية لأن هذه المناهج عموماً لا تصطبغ بصبغة حضارة بعينها وإنما هي مناهج علمية محايدة لا تحمل في ثناياها أي أثر أيديولوجي. ولكن الخطورة تكمن في استيراد المناهج الخاصة بالعلوم الإنسانية (كعلم الاجتماع والتاريخ والسياسة وعلم النفس ...الخ)

وهنا يحضرنا قول المفكر الجزائري مالك بن نبي:

«فالحضارة لا تشترى من الخارج بعملة أجنبية، غير موجودة في خزينتنا فهناك قيم أخلاقية، اجتماعية، ثقافية لا تستورد وعلى المجتمع الذي يحتاجها أن يلدها» (٤).

ولعل أكثر ما في استيراد المناهج (مناهج العلوم الإنسانية) من خطر يكمن في أننا نستورد مع المنهج المستورد أيديولوجيا متخفية وراءه وذلك لأن المنهج أتانا وهو سابق التجهيز، كامل المعالم نشأ في بيئة غربية عن بيئتنا وأتى ليعالج مشكلات تواجه المجتمع الذي ولد فيه فهو لذلك قد يكون صالحاً ولكن للمجتمع الذي نشأ بين ظهرانية وأينع في أرضه. ومع ذلك فالمناهج المستوردة لا تصلنا كما هي بل نحن نستورد ما شاع عنها واجتزئ منها ولذلك تصل إلينا مشوهة مبتورة فعلى سبيل المثال نحن لا نتعامل مع المنهج البنيوي كما قال فيه رواده من أمثال ليفي شتراوس وميشيل فوكو بل نأخذ المنهج كما قيل عنه وكما فهمه غيرنا وكذلك نحن لا نقرأ المنهج التفكيكي إلا كما شاع عن جاك داريدا وكما قالوا عنه وكتبوا حوله وعدلوا فيه وحوره الآخرون وليس كما قال فيه مبدعه. ولذلك فنحن عندما نتعامل مع المناهج المستوردة نضطر إلى أن نلوي عنق الواقع الاجتماعي ليتناسب مع المنهج المستورد وبذلك نخالف ألف باء آلية استخدام المنهج وهو أنه وسيلة للوصول للمعرفة الحقيقية وليس غاية في حد ذاته يجب أن نطبقه على واقعنا سواء اتفق مع واقعنا أم لم يتفق.

ثالثاً: المشكلات والأمراض الحضارية المستوردة:

ويعتبر هذا النمط من الاستيراد من أكثر أشكال الاستيراد الفكري خطورة وهو يتجسد في مشكلة أو مرض حضاري عانت منه مجتمعات معينة في ظروف زمانية ومكانية معينة وهي لا تعني المجتمع المستورد بشيء ولا تعبر عن واقعه أو تطلعاته من قريب أو بعيد، وإنما هذه الأمراض والمشكلات الحضارية هي بنت بيئتها وانعكاس لواقع المجتمعات التي وجدت فيها إذ إن المجتمعات التي وجدت فيها هذه الأمراض تكون عانت من تحديات وأزمات حضارية ومجتمعية معينة مما أفقدها توازنها، ودفعها إلى اختراع حلول علاجية مؤقتة لحل أزماتها الراهنة وهذه الحلول العلاجية المؤقتة هي الأمراض الحضارية، فالمرض الحضاري

هو علاج مؤقت وكردة فعل على صدمة أو أزمة حضارية واجهت مجتمعاً بعينه.

إذاً المشكلة الحضارية أو المرض الحضاري هي عادةً ما تكون مرتبطة بحلول كانت مطروحة من قبل، وقد فشلت تلك الحلول في التعامل مع أزمة مجتمعها. ولكن الوعي الفكري لدى أفراد المجتمع الذي يواجه الأزمة يغامر في خلق فرضيات ووعود لإنقاذ المرحلة الراهنة مع أن هذه الفرضيات ليس لها أي بعد استراتيجي وإنما هي حل آني وليد لحظته ويتمسك به المجتمع الذي يعاني من أزمته بعد أن يخترعه له منظروه من قلب الواقع الذي يعانون منه.

ولكي نوهم أنفسنا بأن ما استوردناه من أمراض حضارية هو استيراد صحيح وصالح لا استخداماتنا واستعمالاتنا الخاصة نقوم باصطناع مشاكل وهمية مثل التي كانت سبباً في بزوغ هذه الأمراض الحضارية في مجتمعاتها، ثم نقوم بإدخالها في خيالنا وكأنها نابعة من مجتمعنا، بل إن الاهتمام المتكلف بها، وكثرة الحديث عنها قد ينقلها من هامش تفكيرنا إلى بؤرة انتباهنا، لتصبح بذلك مشاكل الآخرين مشاكلنا نحن دون أن ندقق بها أو نمحصها.

وفي الواقع قد توجد عندنا نفس المشكلة الموجودة في حضارة أخرى، ولكن ليس من الضروري أن تكون بنفس الأهمية ولا بنفس الحجم ولا بنفس النتائج المترتبة عليها حتى نترك مشاكلنا الملحة ونولي هذه المشاكل كل الاهتمام الذي، يولونه إياها أصحاب المشكلة الحقيقيين.

ومن الأمراض الحضارية المستوردة نذكر على سبيل المثال «العدمية» التي نادى بها الفيلسوف الألماني نيتشه والتي كانت انعكاساً «لطغيان النظام الرأسمالي في أوربا، ويقدم لنا الدكتور هشام غصب توصيفاً للعدمية بقوله:«إن العدمية مرض حضاري ينطوي على وجوم بنيوي في الوجدان الحضاري يفقد الجماعة المصابة به إحساسها واقتناعها الداخلي بالثبات والنظام والتجديد، ويفقدها إيمانها بمفهومي القيمة والهدف في حد ذاتهما، من دون أن يفقدهما في الآن ذاته حاجته إليهما. ثم إنه يحيل العالم في نظرها إلى ركام، بمعنى أنه يجرد صورتها للوجود من روابطها القبلية الأساسية التي تجعلها عالماً، فيعكر التجانس بين الوجود والذات الإنسانية»(٥).

ويكفي أن ننوه إلى أن هذا المرض الحضاري «العدمية» يخلق حالة من

اليأس المطلق والضياع النفسي والتمزق الوجداني مما يجعل العلاقة بين فئات المجتمع قائمة على العنف العشوائي والجنون المدمر والشذوذ السلوكي، ومن ثم فإن العدمية تعمل على إعاقة حركة التحرر والتقدم.

والواقع إن أصحاب هذه الأمراض الحضارية لا يطلبون منا أن ندرس أو نستورد أمراضهم الحضارية ومشكلاتهم الاجتماعية ولكننا نحن الذين نندفع لاختلاق مشكلات وأمراض حضارية في صميم مجتمعاتنا على غرار مشكلاتهم وأمراضهم، والأدهى من ذلك هو أن هذا النمط من الاستيراد الفكري (استيراد الأمراض الحضارية) يوقعنا في مشاكل كثيرة ويأخذ من جهدنا وتفكيرنا الكثير الكثير دون طائل، كما أن هذا النمط من الاستيراد يسهم في اغترابنا عن هويتنا الحضارية وخصوصيتنا الذاتية ·ولذلك اعتقد بأن استيراد الأمراض الحضارية هو في حد ذاته مرض حضاري يصاب به المستورد وذلك لأن المستورد يشعر بعقدة النقص اتجاه الطرف المستورد منه كما أنه يشعر بعقدة النقص اتجاه الطرف المستورد منه كما أنه يشعر بعد الانتماء والاعتزاز لما أنتجته حضارته وبالتالي فهو يشعر بالتبعية لما تنتجه حضارة أخرى، فيستورد كل ما تنتجه الحضارة الأخرى حتى ولو كان ما تنتجه مرضاً حضارياً.

رابعاً: التحصين الحضاري:

إن مشكلة الفكر المستورد بشتى أشكاله (استيراد مفاهيم أو مناهج أو أمراض حضارية .. الخ) يجب أن تواجه بمشروع عمل جماعي وبأسلوب واع شامل توظف له جميع إمكانياتنا ونحشد له كل طاقاتنا لنحصن من خلاله قيمنا وشخصيتنا الحضاريتين ونحافظ من خلاله على إرثنا الحضاري وهويتنا الحضارية وتجلياتها الفكرية والمادية. ولكن هذا المشروع يحتاج إلى خطوات هامة لا بدمنها وهى التالي:

١- أن يتسم التحصن الحضاري بوعي معرفي يحكمه العقل، وأن يبنى على أسس منطقية ومعطيات معرفية وموضوعية واسعة وعميقة تستند إلى معلومات صحيحة وسليمة يمكنها أن تساهم في تكوين معرفة دقيقة بالذات الحضارية في ماضيها وحاضرها وتطلعها إلى مستقبلها.

٢- يجب أن ننظر إلى حضارتنا بمنظار الوسط الذهبي لا إفراط ولا تفريط فنبرز ما فيها من ايجابياتها ونطورها ونبين ما يعتريها من سلبيات

فنتجاوزها وأن نكون على وعي بالمعطيات التي تحكم واقعنا وبالتحديات التي تواجهنا.

٣- يجب أن نتعرف على الذوات الحضارية الأخرى وأهم مقومات هوياتهم وتطلعاتهم ومصالحهم وأهدافهم الاستراتيجية. والتعمق والوعي بهذه المعرفة فتكون لنا بمثابة نقطة الانطلاق في أسلوب تعاملنا مع الآخر ونقطة الارتكاز أيضاً في تمييز هويتنا الحضارية عن الهويات الحضارية الأخرى.

٤- أن لا نجعل من التحصن الحضاري بمثابة جدار عازل حول ذاتنا الحضارية، وإنما يجب أن نستثمر كل انفتاح إيجابي مثمر وبنَّاء بمعنى أن نأخذ من الآخر ما يناسبنا ونعطيه من موضع الثقة بالنفس والاعتزاز بالذات بلا عقد نقص وبدون المبالغة في تقزيم الذات وتفخيم الآخر أو العكس.

٥- أن نرفض التبعية لمركزية الحضارة الغربية خصوصاً أو لأي حضارة أخرى تحاول أن تمحو معالم هويتنا وشخصيتنا وأن تهيمن علينا أو تلغي حضورنا الحضاري الفاعل وتجعلنا كواكب ندور بفلكها أو روافد نصب في نهرها. وأعتقد أن هذه الخطوات هامة في مشروع التصدي للفكر المستورد ولكنني لا أدعي بأنني ذكرت الخطوات اللازمة إذ إن هناك خطوات كثيرة يجب أن تنتبه لها.

الخاتمة:

إن علاقة الأنا بالآخر هي علاقة الهوية والاختلاف، ولا يمكن للأنا أن تبدع دون أن تثبت ذاتها ولذلك نرى بأن أحد أهم أسباب التشوه في الوعي بالهوية الحضارية يكمن بالخلل في العلاقة ما بين الأنا والآخر.

يقول مالك بن نبي: «إن مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكله حضارية، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها» (٦)

ولذلك نحن بحاجة إلى دراسات منهجية متميزة، تستهدف الكشف عن الجذور التاريخية لحضاراتنا العربية ومعرفة كيف صاغت وكونت الأحداث الماضية، بنية العقل العربي، حتى وصل إلى ما هو عليه اليوم، تلك الأحداث التي كان من نتائجها رؤية خاصة للكون والطبيعة والمجتمع والإنسان، وهي تجتمع وتفترق وتتناقض وتتداخل مع رؤى أخرى

كونتها ظروف تاريخية وحضارية مختلفة. فإذا استطعنا فهم الأسس التي تقوم عليها الحضارات والعوامل التي تعيق تقدمها والأسباب التي تعمل على انهيارها وانحلالها بشكل عام ثم فهمنا حضارتنا بما لها من خصوصية تميزها عن باقي الحضارات، ومن ثم نظرنا إلى حضارتنا من زوايا متعددة نظره موضوعيه جادة، فإن ذلك من شأنه أن يساعدنا على تكوين صورة صحيحة متكاملة تعيننا على معرفة طبيعة ماضينا وفهم أدق لحاضرنا ورسم تصور أفضل لمستقبلنا وعندها نستطيع أن نواجه أزماتنا ومشكلاتنا الحضارية الراهنة، ونعمل في ضوء ذلك على تقويم ما اعوج منها وتصحيحه ونسترد ذلك الشعور بالاعتزاز بذاتيتنا والتمسك بهويتنا الحضارية التي شعر بها أسلافنا وهم يضعون أسس الحضارة ويصنعون أحداث التاريخ ويتبؤون الصدارة بن الأمم عندها فقط نستطيع أن نخرج من حالة الركود إلى حالة الحركة الفاعلة ونستعيد التوازن المفقود بين الأنا والآخر. ■■

أهم المصادر والمراجع

١- عبد الرحمن بدوي، اشبنجلر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٤١،ص١٢٦.

٢- موريس كروزيه، تاريخ الحضارات العام، ترجمة: فريد داغر، منشورات عويدات بيروت، الطبعة الأولى، مجلد١، ١٩٦٤م، ص١٧.

٣- مصطفى علم الدين، المجتمع الإسلامي قي مرحلة التكوين، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٢م، ص٦.

٤- مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه، دار الفكر، دمشق، ١٩٧٨م، ص ١٧٢.

٥- سليم بركات، دراسات في الفكر العربي الحديث والمعاصر، الجزء الثاني، منشورات جامعة دمشق، ١٩٩٤ م، ص ١٣٨. وهو مأخوذ عن بحث للدكتور : هشام غصب قدمه إلى من مؤتمر الفلسفة الثاني، المنعقد في عمان من ١٣-١٦ كانون الأول عام ١٩٨٧م.

٦- مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين وعمر كامل مسقاوي. دار الفكر، دمشق، ١٩٧٩م، ص١٩.

